قصص يرويها واقع الثأر المرير.. نساء وأ

.. الخوف.. الفقر.. والضياع.. ثمار تجنيها الأسر التي اجتاح الثأر مساكنها وأصبح يمثل الهدف «رقم واحد» في حياة أفرادها الذين صاحبوا الليل والسلاح، ولبسوا الشك والترقب يخشون حتى من ظلالهم.. كل شيء بالنسبة لهم عدو وقتهم حتى تثبت براءته.

هجروا مساكنهم واحترفوا التشرد.. فقدوا وظائفهم وانضموا الى طوابير العاطلين السلبيين.. خارت قواهم وحملوا أجساداً نحيلة.. هم عالة جديدة على المجتمع وحُكم عليهم بالضياع بعد أن كانوا في يوم ما أعضاء فاعلين تعتمد عليهم أُسرهم في الانفاق وأشياء أخرى..

إنها منتجات لظاهرة الثأر تشدنا عند كل منعطف لتنبهنا الى أنها حلقة قوية مازالت تربطنا بحقب سوداء.. الكثيرون لن يصدقوا أن بعض تلك القصص التي قرأناها في صفحات الكتب عن الثأر عند القبائل العربية القديمة مازالت حية وتشهد نشاطاً غير عادي في عصر الأرقام والاتصالات، بل وتثمر خطراً حقيقياً على المجتمع..

تُرى كم عائلة قضى عليها الثأر وأدخلها خانة الضياع الأبدي..؟! وكم أسرة بانتظار أياد بيضاء تجنبها السقوط الأخير..؟! وكم طفل اختصرت حياته رصاصة غدر أو يتوجع من جراحها..؟؟!

هذه حكايا لا يرويها الخيال أو تسردها حبكة قصصية منمقة.. بل يرويها واقع معاش تحاصره المرارة..

تحقيق / معين محمد النجري

ارتكب جريمة قتل دفاعاً عن عرضه، لكن ذلك لم يغفر له جريمته وأصبح ملاحقاً من قبل أبناء عمومة المجني عليه. أجبره ذلك على ترك القرية ليلاً هو وجميع أفراد عائلته وانتقل الى محافظة أخرى بعيدة عن قريته وأهله، غيّر اسمه وكتم خبره، تستّر بقصص أخرى من نسج خياله، ونجح الى حد ما في الاختلاط بالمجتمع الجديد، لكن نظرات الاستفسار والاستفزاز ظلت ملاحقة له. ترددت قصص أخرى عن «صالح عبدالله» معظمها كانت تقترب من الحقيقة التي ظل يكتمها لوقت غير قصير، ورغم قربه من وجهاء المنطقة الجديدة، إلا أن ذلك لم يشفع له فأبناؤه مازالوا منبوذين تدور حولهم الشبهة والأقاويل ويتجنب الناس الاحتكاك بهذه الأسرة.

من ثأر الى ثأر..!

مر أكثر من خمسة عشر عاماً و«صالح عبدالله» يحنّ الى قريته البعيدة.. يتمنى أن تنتهي هذه القصة التي أخفاها حتى على أبنائه الذين بدأوا يضعون الأسئلة التي يخشى الاجابة عنها. هو أيضاً كان يتذكر قريته، مزارعه، بني عمه.. خمس عشرة سنة وأبناؤه الذين كبروا في قرية غير قريتهم بحاجة الى من يقف الى جوارهم لم تفلح مصاهرته لأحد وجهاء القرية، مازال متهماً «بالغريب» غير أن ذلك كله لم يكن مقنعاً لأن يعود الى قريته البعيدة عنه. كان الى ذلك اليوم يفضّل البقاء في الغربة الاجبارية.

أكثر من خمسة عشر عاماً لم تكن ذي جدوى، فعند اختلاف أكبر أبنائه مع واحد من أبناء المنطقة كانت النتيجة مقتل ابنه الكبير ولأنه وحيد في تلك المنطقة لم يقو على عمل شيء سوى شد الرحال والعودة الى قريته الأصلية. أخبرني أحد أبناء القرية أن عودته أثارت بعض المشاكل، لكن تدخّل المشائخ عند ورثة المجني عليه أوصل القضية الى حل سلمي لكنه قال «لقد دفنّا ثأراً قديماً وتحملنا ثأراً جديداً».

الثأر الجديد ربما يكون أكثر خطراً، خاصة وصالح عبدالله مايزال يمتلك أموالاً وبيوتاً في تلك المنطقة البعيدة وهو بحاجة الى بيعها بعد أن تركها الى الأبد.. ذات الرجل قال «قد ندخل في مشاكل جديدة نجهل عواقبها» عمر من الفرار والخوف والذي انتهى بمقتل أكبر أبنائه وجر وراءه مستقبلاً آخر أكثر غموضاً وخوفاً.. قصة بطلها الثأر بدأت ولم تنته بعد.

دمار بيوت

خمس سنوات قضاها في جبال القفر السافل ووديان العدين لا يفارق السلاح لحظة ولا يأمن لعابر السبيل.. عرف الأحراش والسواقي والتلال.. ثياب مهترئة وجسد نحيل وفزع مزمن.. تساوى عنده الليل والنهار، وقرأ نهاية حياته وهو مايزال قائماً على ساقيه. بدأت هذه الرحلة عندما ثأر «الجمّال» لابنه الأكبر الذي قتلته احدى الأسر في القفر السافل فقتل سبعة من أبناء تلك العائلة. «الجمّال» الذي كان يسكن في احدى القرى الهادئة كان الأكثر ثراءً فهو أحد أكبر ملاك الأرض، بالاضافة الى قطعان الماشية وأكثر من مائتي خلية نحل وثلاثة أبناء وأب بلغ من العمر عتيا، وعندما وقعت الحادثة في مركز المديرية لم يعد الجمّال الى قريته، بل غادرها الى حيث الموطن الآخر.. الى حيث لا أمن ولا استقرار.. لا سقف ولا جدران، ترك كل ما يملك لوالده وطفل واصطحب معه شاباً مصاباً بطلقة نارية هو الابن الثاني. تلك العائلة فشلت في الثأر من القاتل وعمدت الى ممتلكاته.. أحرقت منزله ونهبت خلاياه وقطعت شجره وأصلبت مزارعه فتحول في لحظات من رجل ميسور الحال صاحب كلمة ووجاهة وسط

انتظروا والدهم.. فـ

المحيطين به الى رجل لا يملك من حطام الدنيا ما يغيّر به ملابسه.. مطارد.. لا مكان له ولا أمان، طُرد والده الشيخ من المنزل وأصيب طفله، وخرجوا من القرية هائمين على وجوههم لا يعرفون أي وجه سيستقبلهم، وبعد أيام معدودة مات أبوه المسن بعد أن نال منه التعب والاجهاد ودفُن دون أن يحضر هو جنازته.. طفله أيضاً تاه بين القرى الى أن تبنته احدى الأسر وولده الشاب المصاب أرسله الى وجهة غير معروفة، وظل هو في الجبال.

هكذا وقعت عصا الثأر على عائلة ملأها الستر والدفء يفقد الطفل حنان والديه ويسكن المسن لحده دون أن يجد من أهله من يكفّنه أو يواريه الثرى ويرُسل الابن الى مكان لا أعتقد أنه قريب ولا أحد يدري مصيره ويظل هو بائعاً حياته لا لشيء.

خمس سنوات قضاها الجمّال بين الجبال والوديان يصاحب القتلة والفارين ويدافع عن نفسه كلما حاول صاحب الثأر النيل منه.. خمس سنوات وصل عدد ضحايا الثأر بين تلك العائلتين الى خمسة عشر شخصاً معظمهم من الشباب، وذات يوم عندما كانت الشمس وسط السماء كان الجمّال يتناول طعام الغداء مع أحد القتلة الفارين من منطقة أخرى كان جسده على موعد مع بضع رصاصات جاءته من غير اتجاه. في هذه المرة لم يكن «الجمّال» هو المقصود، لقد كان المقصود فيها ذلك الشاب الذي يقاسمه الغداء، لكن الرصاصات حين تنهمر لا تفرّق بين «غريم وبريء» ولا تملك القدرة على تغيير مسارها. قُتل الجمّال ومعه صاحبه وظلت قصته يتناقلها الناس وكأنها أسطورة وليست حقيقة، ولو لم أكن أحد الشهود على جزء من هذه القضية لما صدقتها ولحسبتها من نسج الخيال الريفي الخصب.

أطفال ينتظرون!!

لا شيء ايجابي يحمله الثأر بين جنباته المؤرقة بالخوف والقلق والترقب والفرار من كل شيء.. ان لحظة ولوج هذه الكلمة على أي عائلة أو أسرة أو مجتمع هي بداية حياة جديدة ملامحها الشتات والتفكك والضياع وتدني مستوى المعيشة والتوهان في طرق لا تؤدي إلا الى المزيد من الفقدان لحياة آمنة.

حكاية أخرى..

ثمانية وعشرون عاماً هو عمر «العزي» عندما نفذ ما كان يخطط له منذ أن كان طفلاً.. نجح في اخفاء ذلك الكم الهائل من الرغبة في الانتقام، كل تلك السنين لكنه في الأخير ترجمها الى واقع مؤلم حين نجح في الثأر من قاتل والده لكن الطلقات النارية أخذت في طريقها روح رجل آخر بريء كان جالساً الى جوار الضحية. لقد كان يأمل أن تدفن القضية الى الأبد، لكنه فتح أكثر من قضية وأصبح مطارداً من أكثر من جهة. حدث ذلك قبل أكثر من عام ومن يومها هجر بيته وصاحب الليل والسلاح.. تجنب الاختلاط بالناس وإن مر مرّ ملثماً خشية أن يعرفه أحد.. أطفاله الثلاثة عرفوا اليتم وهو مايزال حياً يرزق، وامرأته التحقت مبكراً بنادي الأرامل.. بيته الذي كان يضع اللمسات الأخيرة في الطابق الثاني منه دُمّر بشكل شبه كلي.. محلاته التجارية أُغلقت بأمر قسري من الوضع الذي تمر به العائلة وبدأ الفقر يدب في أسرة كانت تعيش الى قبل الحادثة بأيسر حال.. أبناء عمه يتجنبون الاحتكاك به أو مسايرته خشية تعرضهم لسوء، هو أيضاً تحمّل دماً جديداً لا ناقة له فيه ولا جمل، وبعد غياب عن العمل فقد وظيفته وتحوّلت حياته الى جحيم لا يطاق، كل ذلك جعله يسعى الى الصلح لكن بعد فوات الأوان.. حينها كان أبناء المقتول قد أعدوا العدة ونفذوا ما خططوا له فأوقعوه قتيلاً والى جواره شخص آخر بريء لا علاقة له بالقضية.

الضحية الجديدة له سبعة أبناء لا عائل لهم، وديّة والدهم لن تكفيهم صروف هذا الزمن. أما أبناء «العزي»

العدوانية.. التشرد.. الانحراف.. جميعها صنائع الثأر

■ الطفل عدي الذي تلقى جسده اربع رصاصات غادرة يرقد في احدى المستشفيات.

الخميس ٢٥ صفر ١٤٢٥هـ الموافق ١٥ ابريل ٢٠٠٤م العدد (١٤٤٠٠)